

الحضارة من منظور مالك بن نبي

✉ بلال بوسنة - كلية العلوم الإسلامية . جامعة باتنة 1

Billel.boussena19@gmail.com

الملخص:

مالك بن نبي مفكر وفيلسوف جزائري ولد سنة 1905 بمدينة قسنطينة، نشأ في أسرة متواضعة، ألم مالك بن نبي بالعديد من العلوم التي أهلتته بأن يكون مميزا عن غيره؛ هذا الرجل شخص واقع أمتة الإسلامية التي تعاني الضعف والهوان؛ ورأى أن الإشكال يكمن في الحضارة قائلا " إن مشكلة كل شعب في جوهرها هي مشكلة حضارية" انطلق في بحثه عن مشكلات الحضارة من الآخر المتمثل بالحضارة الغربية فكك النموذج المعرفي الذي تستند إليه الحضارة الغربية ثم نقده رغبة في تجاوزه. رأى مالك بن نبي أن الحضارة تنتج وتفعل من المرجعية المعرفية الإسلامية وخلص إلى نتيجة أن؛ الحضارة لاتباع ولا تشتري.

الحضارة عند مالك بن نبي هي نتاج تفاعل عناصر ثلاثة: إنسان+ تراب + زمن والمركب بين هذه العناصر هي الفكرة الدينية، حث كثيرا على الإنسان الفعال؛ الذي يوجه الحضارة من خلال فكره وماله وعمله مستغلا عامل التراب والذي يقصد به البيئة الاجتماعية وعنصر الزمن

الذي يعده ركن أساسي يجب استغلاله هذي العناصر لا تتفاعل إلا بوجود الفكرة الدينية التي تدفع بهذه العناصر إلى دخول التاريخ. الكلمات المفتاحية: الحضارة - العناصر - الرؤية - الغربية - الإسلامية.

Abstract :

Malek Bennabi, an Algerian thinker and philosopher, was born in 1905 in the city of Constantine. He grew up in a humble family. Malik Bennabi had many sciences that enabled him to be distinguished from others. This man is a person of the reality of his Islamic nation, which suffers from weakness and humiliation; He believed that the problem lies in civilization, saying, "The problem of every people is in essence a civilizational problem." Malik bin Nabi saw that civilization is produced and activated by the Islamic epistemological reference and concluded that: Civilization to follow and not buy. Civilization, according to Malik bin Nabi, is the product of the interaction of three elements: human being + dust + time, and the compound between these elements is the religious idea, urging a lot to the active human being; Who directs civilization through his thought, money and work, taking advantage of the factor of dirt, which means the social environment and the element of time, which is considered an essential element that must be exploited. These elements do

not interact except with the existence of the religious idea that pushes these elements into history.

Key words: civilization - the elements - vision - Western - Islamic

المقدمة:

إن إعادة النظر في تراث المفكرين الجزائريين والحديث عنهم هو بمثابة فلسفة لهم، هذه الفلسفة التي قوامها النظر تستنطق المفكرين من خلال كتاباتهم؛ لماذا كتبتم يا مفكرين؟ ماذا كتبتم؟ لمن كتبتم؟ وكتابات المفكرين بدورها تتفاعل مع أسئلة الفلسفة وتجب لتنتج قوانين ونظم تنقل المجمع القارئ لتراث المفكرين من نقطة الكمون إلى نقطة الحركة والديناميكية.

أحببت أن تكون ورقتنا على مفكر بارز قامت بفكره العديد من الدول إنه: مالك بن نبي، نريد من خلاله معالجة قضية من بين عشرات القضايا التي تطرق إليها وهي مشكلة الحضارة التي تعد قضية محورية و جوهرية يجب البحث عن عوامل قيامها وعن أسباب انحطاطها وهذا ما جعلني أتساءل: هل استطاع مالك بن نبي أن يشخص الحضارة؟ مفرخا من هذه الإشكالية تساؤلات فرعية: من هو مالك بن نبي؟ ما هو مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي؟ ماهي عناصر الحضارة عند مالك بن نبي؟ كيف نقد الحضارة الغربية مالك بن نبي؟.

نريد من هذه الإشكالية إبراز فكر مالك بن نبي الرجل المهضوم حقه في الجزائر وأن نعيد النظر إلى رجل لورجعنا إلى تراثه قراءة وتطبيقا لرتقينا ونهضنا من سباتنا وتخلفنا الذي نعانيه. وللإجابة على هذه الإشكالية أردنا أن تسير الدراسة عبر الخطة التالية:

المقدمة:

المحور الأول: مالك بن نبي حياته ونشأته الفكرية.

المحور الثاني: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي ونقده للحضارة الغربية.

المحور الثالث: عناصر الحضارة والفاعل المركب بينهم.

خاتمة

نسعى من خلال هذه الورقة إلى تحقيق جملة من الأهداف والمتمثلة في:

_ التعريف بمالك بن نبي ووزنه في حركة الفكر الجزائرية.

_ معالجة الواقع بالرجوع إلى فكر مالك بن نبي الشامل.

_ معرفة موقعنا منا الحضارة الإسلامية من خلال فكر مالك بن نبي.

المحور الأول: مالك بن نبي حياته ونشأته العلمية

إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان، فالإنسان هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير والبناء. كانت هذه من بذور النهضة التي كافح من أجلها ومتن جذورها وطيب سمادها مناضل من أبرز رجال الفكر الإسلامي مالك بن نبي. وعليه أتناول في هذا المطلب فرعين؛ حياة مالك بن نبي ونشأة فكره.

أولاً: حياة مالك بن نبي

ولد مالك بن الحاج عمر الخضر بن مصطفى بن نبي بقسنطينة في يناير سنة 1905م، وهو يرى أن ولادته في هذه الفترة من الزمن مكنته من الشهادة على القرن حيث أتاحت له فرصة الاتصال بالماضي والمستقبل يقول: " إن من ولد بالجزائر سنة 1905م يكون قد أتى في فترة يتصل فيها وعيه بالماضي الممثل في أواخر شهوده وبالمستقبل المتمثل في أوائل صائغيه"¹ ومن هنا ندرك السبب الذي جعل مالك يطلق على مذكراته اسم مذكرات شاهد القرن. نشأ مالك في عائلة محافظة فقيرة في المعيشة؛ كان بن نبي شديد القربة بجده الحاج زوليخة التي تعد بالنسبة له مدرسة أخلاقية رسخت في ذهنه وفي نفسه معنى الخير والإحسان وشحنته أخلاقياً².

¹ عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان، 2012، ص 52.

² ينظر: فهدى جدران، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط1، دار الشرق، الأردن، 1998، ص132.

ارتحلت عائلة مالك بن نبي المتكونة من الأب والأم ووالديها والأولاد؛ مالك وأختيه³ إلى مدينة تبسة، ونظرا للحالة المزرية التي كانت تعانيها أسرة مالك بن نبي جعل مالك بن نبي ينتقل إلى عمه في قسنطينة للعيش عنده ولم يدم ذلك طويلا حت أرجعته زوجة عمه إلى والديه في تبسة بعد وفاة عمه الأكبر الذي تبناه منذ أمد بعيد يقول مالك بن نبي: " لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر"⁴.

اعتاد مالك بن نبي في التردد على المساجد منذ وقت مبكر في حياته، بدأ في حفظ المتون والقران الكريم الذي كان بالنسبة له الشاحن والمدعم الذي أشبع روحه⁵.

وفي سنة 1923م نجح مالك بن نبي في نهاية المطاف من الدخول إلى المدرسة الرسمية وسعى لتكوين نفسه علميا ومعرفيا، حيث درس الأدب العربي والإسلامي وكان شديد الاهتمام بالمطالعة، الصحافة العربية والفرنسية كجريدة المنتقد والراية والنضال⁶.

كان مالك بن نبي عضوا نشيطا في جماعة الوجدويين فكانت له الجرأة أن قدم يوما محاضرة بعنوان " لماذا نحن مسلمون" في أواخر

³ ينظر: عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص58.

⁴ مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، بإشراف ندوة مالك بن نبي، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984، ص18.

⁵ ينظر: زكي الميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1998، ص57.

⁶ عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الشهاب، (د ب)، 1984، ص216.

ديسمبر 1931م وقد أثرت هذه المحاضرة جدلا كبيرا بينه وبين الانفصاليين⁷.

تزوج مالك بن نبي عام 1931م من امرأة فرنسية أسلمت على يده وأصبح اسمها خديجة كما تعرف في فرنسا على العديد من الشخصيات السياسية التي التقى بهم وتأثر بهم منها؛ المهاتما غاندي (1869_1948) وشخصية مصالي الحاج موسى نجم شمال إفريقيا حيث نشط معه مسرحية الحاكم الطيب⁸.

وفي سنة 1972م قام بأداء فريضة الحج وأثناء رحلته إلى مدينة الأغواط في الجزائر كان يلقي بعض المحاضرات هناك، اشتد به المرض وكان قد أصابه السرطان في البروستات، فسافر إلى باريس للعلاج، ثم اشتد عليه المرض هناك نصحه طبيبه بالعودة إلى بلده، عاد إلى الجزائر وبعد ثمانية أيام توفي في 31 أكتوبر 1973 بعد عمر يناهز الثمانية وستين⁹.

ثانيا: نشأة مالك بن نبي العلمية

إن التكوين الفكري للإنسان يمر بمراحل يرتقي من خلالها حت يصل إلى مرحلة النضج والعطاء، فهو بمثابة البناء، ينطلق من القواعد والأسس ليرتقي إلى الأعلى، ولاسيما إذا توافرت لدى الشخص الاستعدادات

⁷ مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 221.

⁸ ينظر: زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، مرجع سابق، ص 45.

⁹ ينظر: زكي الميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، مرجع سابق، ص 45.

الفطرية التي تتيح له السير في طريق بناء الفكر وتطوره التطور السليم،
وتيسر له السبل لاكتساب العلمية التي تجعل صاحبها في عداد المفكرين
وكان مالك يحمل في نفسه استعدادات فطرية أهلتها لاكتساب الصفات
العلمية التي طبعت إنتاجه الفكري، فكان بذلك مدرسة من مدارس
الفكر الإسلامي المعاصر.¹⁰

ومن أبرز تلك الصفات التي كان مالك يتصف بها¹¹:

أ_ حب القراءة؛ ومطالعة جميع ما يقع تحت يده من مادة فكرية.

ب_ حب المناقشة؛ وممارستها في مجال الأفكار.

ج_ تأمل الواقع؛ والتفكير بحل مشكلاته.

د_ الصبر والمصابرة؛ الإصرار للوصول إلى الهدف.

هـ_ الطموح العلمي.

وكما هو معلوم أن أي متلقى فطن له مؤثرات تؤثر على
شخصيته تجعله يتكون ويتسلح لينتج ويؤلف؛ مالك بن نبي كذلك تأثر
بمؤثرات أثرت في شخصيته وجعلته يؤلف: فما هي هذه المؤثرات؟ وفيما
تمثلت مؤلفاته؟.

1_ العوامل التي أثرت في نمو شخصيته وفكره

¹⁰ ينظر: عبد الله بن حمد العويس، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص41.

¹¹ ينظر: مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 111، 112، 120.

إن الظروف والعوامل المحيطة بشخصية مالك بن نبي أسهمت في تشكيل شخصيته وتكوين فكره، وصقل آرائه¹²، ومن بين أهم المصادر التي أثرت عليه:

أ_ الثقافة العربية والإسلامية:

تلقى بن نبي في الوسط المدرسي تكوينا علميا وأدبيا معتبرا، حيث درس التوحيد على يد شيخه "مولود بن موهوب" والفقهاء والسيرات على يد الشيخ "بن عابد". كما تأثر كثيرا بالحركات الإصلاحية الإسلامية بالجزائر: كحركة الشيخ عبد الحميد ابن باديس وبالحركة الإصلاحية في المشرق ومن أبرز المتأثرين بهم؛ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا يقول مالك بن نبي: "وكان آخر هذه المؤثرات كتابات عثرت عليها في مكتبة النجاح أحدهما الينابيع البعيدة"¹³.

ويعتبر "حمودة بن ساعي" المؤثر الحقيقي في شخصية مالك بن نبي فهو الذي أحدث في فكره تلك القفزة النوعية من دراسة العلوم، كما تعلم منه كيفية التفسير والتأويل للآيات القرآنية الكريمة تفسيرا اجتماعيا¹⁴

2_ أثر الثقافة الغربية فيه تكوين شخصيته

¹² ينظر: العابد مهبوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، بسكرة، 2014، ص66.
¹³ مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص66.
¹⁴ ينظر، المرجع نفسه، ص 67.

تأثر مالك بن نبي ببعض الفلاسفة والمفكرين أذكر منهم: "نيتشه" الفيلسوف الألماني في كتاب "هكذا تكلم زرادش" وأخذ عن "كانط": فكرة الحق والواجب، كما أخذ عن جون ديوي من كتابه؛ كيف نفكر تلك النزعة البراغماتية التي تؤكد على الجانب النفعي في مجال التربية، كما اطلع على كتابات المستشرقين عن الإسلام مثل كتاب "أوجينغ يونق" الإسلام بين الموت، وطلع على كتابات "هنري بيرن" و المؤرخ الفرنسي "جيز...الخ، تحلى مالك بن نبي بثقافة منهجية استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهم القضايا بالعالم¹⁵.

3_ مؤلفاته: ترك مالك بن نبي عدة مؤلفات ركزت كلها على إبراز مشكلة العالم المتخلف بما في ذلك العالم الإسلامي، باعتباره قضية حضارة أولا وقبل كل شيء فوضع كتبه جميعا في سلسلة تحت عنوان؛ مشكلات الحضارة¹⁶، وتمثلت مؤلفاته فيما يلي:

_ الظاهرة القرآنية؛ ظهر سنة 1946 في الجزائر.

_ لبيك؛ رواية ظهرت سنة 1947 في الجزائر.

_ شروط النهضة؛ ظهر سنة 1948 في الجزائر.

_ وجهة العالم الإسلامي؛ ظهر سنة 1954 بباريس.

¹⁵ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: كامل مسقاوي و عبد الصبور شهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987، ص 69_71.

¹⁶ ينظر: موسى لحرش، استراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006، ص60.

- _ فكرة الإفريقية الآسيوية؛ ظهر سنة 1956 بالقاهرة.
- _ مشكلة الثقافة؛ ظهر سنة 1959 بالقاهرة.
- _ فكرة كومونولث إسلامي.
- _ في مهب المعركة.
- _ ميلاد المجتمع
- _ أفاق جزائرية.
- _ مذكرات شاهد القرن (الجزء الأول) ظهرت سنة 1965 بيروت.
- _ مذكرات شاهد القرن (الجزء الثاني) ظهرت سنة 1970 بالجزائر.
- _ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ظهر سنة 1972 بالقاهرة.....الخ.
- بالإضافة إلى مجموعة من المؤلفات والمخطوطات التي لم تظهر¹⁷.

المحور الثاني: نقد مالك بن نبي للحضارة الغربية

مالك بن نبي رجل موسوعي ملم بثقافتين؛ الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، وفلسفته التحليلية جعلته ينطلق من الآخر _ الحضارة الغربية _ يفككها يحللها رغبة في تجاوزها ثم ليعود إلى الأنا _ الحضارة الإسلامية _ من أجل البناء والتقدم. كيف نظر المسيري إلى

¹⁷ ينظر: عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق، ص31_32.

الحضارة كمنطلق في تفسيره وكيف أنتقد الحضارة الغربية وما أتناوله في هذا مطلبى هذا المقسم إلى فرعين؛ مفهوم الحضارة من منظور مالك بن نبي، نقد مالك بن نبي للحضارة الغربية.

أولاً: مفهوم الحضارة من منظور مالك بن نبي

يعرف مالك بن نبي الحضارة من عدة جوانب:

1_ من ناحية الجوهر: يقول " الحضارة في جوهرها هي عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحققة، فالثقافة في جوهرها الحضارة لأن كل واقع اجتماعي هو في أصله قمة ثقافية خرجت إلى حيز التنفيذ"¹⁸.

2_ من حيث الفكرة: يعرفها قائلاً: " الحضارة هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما قبل التحضر التي تدخل به التاريخ ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته"¹⁹.

3_ يعرفها من حيث التركيب: يقول " الحضارة هي تفاعل العناصر الثلاثة: إنسان+ تراب+ زمن؛ والذي يركبها العامل الأخلاقي والدين يعمل على تماسكها"²⁰.

¹⁸ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ط4، دار الفكر، الجزائر، 1984، ص98.

¹⁹ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ت: بسام بركة وأحمد شعيبو، ط1، دار الوعى، الجزائر، 2013، ص41.

²⁰ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، ت: عبد الصابور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1971، ص134.

4_ من حيث الوظيفة: يعرفها قائلا " هي جملة من العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره"²¹.

ثانيا: نقد مالك بن نبي للحضارة الغربية

نظر مالك بن نبي إلى الحضارة الغربية على أنها تمثل نفسها فقط؛ هي كباقي الحضارات فوصفها بالحضارة العلمية هو نوع من تقزيم للأنا وتعظيم للآخر، ولكي نهض يجب أن نتحيز على كل ما هو غربي يقول " إن الحضارة ليست شيئا يأتي به السائح في حقيبته لبلد متخلف، بل إن ابن المستعمرات هو الذي يذهب إلى الحضارة الغربية ويقبل كل شيء فيها ويرجعها إلى مصادره الأقرب من أصلته، والحضارة الغربية ستبقى مثل ما سبقتها من الحضارات مرحلة في تاريخ الإنسانية وإن كانت هذه المرحلة مرحلة فاصلة بمقتضى ارتباطها بعصر الذرة، فإن الإنسانية لن تدين من ثم بحضارتها إلى نية الغرب وإلى عبقريته، بل تدين إلى العناية الإلهية التي تضع مصيرها تحت قوانين سماوية تسيّر تاريخها"²². انطلاقا من قول مالك بن نبي نلاحظ أنه يوجه اللوم إلى المستعمر (بفتح الميم) الذي تقبل وذهب إلى الآخر وانسلخ من حضارته من غير فقه لتحيزات هذه الحضارة من غير فقه لما ينجر عنه من انعكاسات تعود سلبا على حضارته.

²¹ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 42.

²² مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص123.

والحضارة الغربية هي حضارة تنطلق من المادة والطبيعة كمعيار للحقيقة والحياة فلا وجود لما يسمى بالغيب فهل يصح أن ننقل مصطلحات وأفكار من سياق معرفي معين إلى سياق معرفي آخر مخالف تماما لرؤية الأول من غير تمحيص ونقد يقول مالك بن نبي " الحضارة الغربية باعتبارها شغالة ومهنية قد صنعت النموذج الاجتماعي المطبوع بما نسميه مثاليها أي؛ مطبوع بالعبقرية ومن الطبيعي أن يكون هذا النموذج متنوع حسب الحاجة من مجتمع إلى آخر فكيف نحكم على من يأتي إلى بابك كي يبيعك الحضارة إن بعض القيم لاتباع ولا تشتري والحضارة من بين هذه القيم"²³.

يدعم مالك بن نبي نقده للحضارة الغربية انطلاقا من تجربته الشخصية يقول " بذلت مجهود حضاري منذ عشرين سنة كرجل يمارس الحياة الفكرية إلى حد ما، قد رجع عليا من الناحية الإدارية بالشر.... وعلى سبيل المثال أذكر أنني قدمت بعد نهاية دراستي سنة 1936 طلبا إلى الوزير المسؤول بباريس من أجل تأسيس معهد بقسنطينة لتحضير الطلبة الذين يرغبون في الدخول إلى كليات الهندسة فلم يأتي أي رد، وفي سنة 1938 أسست بمدينة مرسيليا مدرسة للأميين فدعتني الإدارة المختصة ومنعتني من أن أوصل التدريس بحجة أنه ليس لدى مؤهلات الكافية لتدريس ألف، باء"²⁴ ومن هنا نستنتج أن مالك بن نبي لم يكن يعيش الرخاء في أوروبا بل عانى الأمرين في الجزائر وفي أوروبا.

²³ مالك بن نبي، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص123.

²⁴ المرجع نفسه، ص123_124.

المحور الثالث: عناصر الحضارة عند مالك بن نبي

إن الحضارة عند مالك بن نبي هي ظاهرة إنسانية تتشكل من الإنسان والتراب والوقت بفعل الفكرة الدينية التي تدخل التاريخ وتؤلف بين العناصر الثلاثة السابقة، أعظم مشكلة في حياة الإنسان حسب مالك بن نبي هي مشكلة الحضارة ذاتها ترتبط هذه المشكلة بالعناصر الأولية المكونة للحضارة وبالمركب الذي يفعل هذه العناصر.²⁵ هذا ما تناوله في مطلبه هذا مقسما إياه إلى فرعين؛ عناصر الحضارة والمركب الذي يركب بين هذه العناصر.

أولا: عناصر الحضارة عند مالك بن نبي

للحضارة ثلاث عناصر أساسية تكونها، ولا يمكن الاستغناء عن أحدها دون الآخر، وأي غياب لأحد ثلاث العناصر التالية يستحيل وجود تاريخ حضاري. الحضارة عند مالك بن نبي هي تفاعل الإنسان+ التراب+الزمن فلاوجود لحضارة بلا إنسان ولا حضارة بلا تراب ولا حضارة بلا زمن.²⁶

أولا/ الإنسان:

²⁵ جيلالي بوبكر، بين الحضارة وفكرنا العربي المعاصر، ط1، دار الأمل، تيزي وزو، 2012، ص106.

²⁶ بن جراد عمارية و دليل شريفة، دور الإنسان في إنجاز الحضارة عند مالك بن نبي، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات، قسم الأدب العربي، جامعة تلمسان، 2013، ص49.

إن مشكلة الإنسان يحددها السؤال التالي: كيف السبيل إلى إنسان قادر على بناء حضارة؟ ويؤكد مالك بن نبي على هذه القضية من خلال فكرة تعتبر إجابة على شكل سؤال: هل نحن في حاجة إلى مؤسسات أم إلى رجال؟ يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافه الكبرى.²⁷ والإنسان هو الكائن الحضاري الذي ينتج حضارة وبالتغيير والحركة، ولا يغير الإنسان التاريخ إلا إذا غير فكره وكان مالك بن نبي يستشهد بقوله تعالى ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))²⁸. حيث يؤثر الإنسان في تركيب الحضارة بثلاث مؤثرات بفكره وبعمله وبماله.²⁹ وبالتالي يجب توجيهه في الجوانب الثلاثة:

_ الفكر: يوجه الثقافة من خلال الجوانب التالية: الجانب الخلقى، الجانب الجمالي، الجانب العملي، الجانب الصناعي.

_ العمل: السير في اتجاه واحد من أجل تحقيق الكرامة والرفاهية.

_ المال: تحويل معناه الاجتماعي من أموال كادسة إلى رأس مال متحرك بين الشعب.

1_ توجيه الفكر: انطلاقاً مما سبق يتبين لنا أن توجيه فكر الإنسان مرتبط بتقدم الأمة أو تأخرها ولتقدم الأمة لا بد على الإنسان

²⁷ جيلالي بوبكر، بين الحضارة وفكرنا العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 106.

²⁸ سورة الحج، الآية: 8.

²⁹ ينظر: جيلالي بوبكر، بين الحضارة وفكرنا العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 106.

أن يعمل على تنقية فكره من كل أنواع التخلف والقابلية للاستعمار والأفكار المميتة والقاتلة. وتنظيم الفكر يشمل على أربع جوانب:

أ_ الجانب الخلقى: يعطي مالك بن نبي أهمية للتوجيه الأخلاقي وما تحمله من تعاليم للدين ومنه فالروح الأخلاقية منحة إلهية لعباده على وجه الأرض ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد ببعضهم البعض.

ب_ التوجيه الجمالي: يتجلى الجمال عند مالك بن نبي في الألوان والأشكال والحركات التي يقبلها الذوق وتنعكس إيجاباً على أفكار الفرد فتوجهه بشعور قيمته وكرامته فيرتقي بسلوكه إلى الفضيلة ويساعد على الإبداع أكثر³⁰.

ج_ المنطق العملي: وتعني عند مالك بن نبي كيفية ربط العمل بوسائله³¹.

د_ الصناعة: يعني مالك بن نبي بالصناعة مصطلح التقنية والتوجيه الفني وهي كل الفنون والمهن والقدرات التي تنتج للفرد كسب عيشه والوسيلة للحفاظ على بقائه واستمرار نموه³².

2_ توجيه العمل: يرى مالك بن نبي أن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد

³⁰ ينظر: مالك بن نبي، تأملات، ط1، دار الفكر، دمشق، 1989، ص202.

³¹ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص102.

³² ينظر: المرجع نفسه، ص114.

السائق والراعي والطبيب والطالب... الخ لكي يضع الكل منهم لبنته في البناء، إن الكرامة والرفاهية تنبثقان من توجيه العمل الذي هو تأليف لكافة الجهود لتغيير وضع الإنسان³³.

3_ توجيه رأس المال: إن توجيه قوة رأس المال لا يرتبط بكمها بل بكيفها ونوعها إذ ينبغي أن تصير كل قطعة نقدية متحركة تنتج معها العمل والنشاط فالقضية ليست في تكديس الأموال بل؛ من جعل هذا المال متحرك ينشط الفكرة والعمل والحياة في البلاد³⁴.

من خلال هذا العرض نجد ان مالك بن نبي يركز على الإنسان الفعال الذي يستطيع أن يزاوج بين الفكر والعمل والمال من أجل تحقيق النهضة؛ وشتان لو يتفطن الإنسان العربي اليوم إلى طبيعة الإنسان الذي يتحدث عنه مالك بن نبي كي يخرج من سباته قليلا.

ثانيا/ عنصر التراب:

يعني مالك بن نبي بالتراب كل ما على وجهها وفي باطنها من ثروات، وليس المقصود بالتراب هنا البحث في خصائصه؛ وإنما البحث في قيمته الاجتماعية كونه عاملا من عوامل النهضة الحضارية، فكلما ارتفعت الأمة وتقدمت حضارتها كلما ارتفع قيمة التراب، وكلما تخلفت الأمة أصبح ترابها على قدر من الانحطاط³⁵.

³³ ينظر: جيلالي بوبكر، بين الحضارة وفكرنا المعاصر، مرجع سابق، ص 107.

³⁴ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 117.

³⁵ ينظر: العابد مهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 172.

كما ترتبط مشكلة التراب في أصلها بمشكلة الإنسان الذي يملك هذا التراب وهو مادة جامدة لا تقدر على الحركة إلا إذا حركتها أيادي ذات توجيهه فني وتقني؛ فالياباني حسب توينبي استطاع أن يستغل الوظيفة الاجتماعية للتراب؛ لوجود عنصر التحدي والاستجابة لديه رغم ضعف تربته فهي جزر ذات جبال وصخور، ونجد الأندونيسي الذي عجز عن إدراك وظيفة التراب اجتماعيا فهو غارق في التخلف، وفي الحالتين يعود الأمر إلى موقف الإنسان من التراب وليس إلى طبيعة التراب ذاته.³⁶ ولو أرجعنا هذا العنصر إلى واقعنا المعيش فالجزائر نجد أن المشكلة ليست فالتراب لأننا نملك أفضل الأراضي؛ وإنما السبب يرجع إلى غياب الإنسان الفعال الذي يستثمر في عنصر التراب.

ثالثا/ الوقت:

يقول مالك بن نبي: " أما الوقت وهو الزمن فهو نهر عظيم يعبر العالم منذ الأزل! قد يكون ثورة عظيمة عند البعض، وقد يكون عدما عند الآخرين ولا قيمة لمقولة " الوقت من ذهب " لأن الذهب يعوض؛ والزمن إذا ضاع منك دقيقة فلن تستعيدها أبدا، ويرجع بن نبي سبب تخلف أمتنا أنها لا تدرك فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ.³⁷

³⁶ ينظر: جيلالي بوبكر، بين الحضارة وفكرنا العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 108.

³⁷ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 81.

فبمقدار ما يقدس الوقت في العمل بمقدار ما يوظف التراب كشرط عام أولاً، وكأداة للحصول على القوت اليومي ثانياً، وتتحقق الوظيفة الاجتماعية للوقت ويصير عنصراً أساسياً في بناء المجتمع وتحريك التاريخ وتكوين الحضارة³⁸. لو لاحظنا نحن الجزائريون كيف نتعامل مع الوقت لأدركنا فعلاً لماذا نحن متخلفون.

رابعا/ الفكرة الدينية:

إن الدين هو العامل الرئيسي لنشأة الحضارات، ومن هنا يتجلى البعد المعرفي الكلي لنموذج مالك بن نبي، بالإضافة إلى الإنسان الذي يحمل تلك الفكرة الدينية فالحضارة " لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية وينبغي أن نبحت في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها"³⁹.

ويؤكد مالك بن نبي أن الفكرة الدينية هي المركب أو الممزج لعناصر الحضارة فهي التي رافقت تركيب الحضارة خلال التاريخ⁴⁰، ليست الحضارة الإسلامية فقط بل كل تاريخ وكل حضارة عرفت البشرية إلا وكانت وراءها فكرة دينية، فقوة التركيب والمزج بين عناصر الحضارة خالدة منذ القدم في جوهر الدين⁴¹.

³⁸ ينظر: جيلالي بوبكر، بين الحضارة وفكرنا المعاصر، مرجع سابق، ص 108.

³⁹ مالك بن نبي، ميلاد المجتمع، مرجع سابق، ص 55.

⁴⁰ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 46.

⁴¹ ينظر: أمانة تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرلوند توينبي، ط 1، المؤسسة الوطنية لدار الكتاب، دار مدين، 1989، ص 50.

فالحضارة الإسلامية الوحي الرباني هو سبب انبعاثها، هو الذي جعلها حضارة خالدة؛ فجزيرة العرب لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك كانت العوامل الثلاثة (الإنسان والتراب والوقت؛ راكدة خامدة وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدي دورا ما في التاريخ؛ حتى إذا تجلت بغار حراء كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن نشأت بين هذه العناصر الثلاثة (الإنسان+تراب+وقت) المكدسة حضارة جديدة، فكأنما ولدت كلمة "اقرأ" التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه وعليه العالم⁴². فبناء الحضارة وتحقيق النهضة يتم عبر تركيب الكتلة المخصصة من الإنسان والتراب والوقت في لحظة تسود فيها الروح⁴³.

خاتمة

بعد العرض المتواضع لفكر مالك بن نبي حول الحضارة وعناصرها، يمكن القول أن المفكر الإسلامي مالك بن استطاع أن يشخص حالة الأمة إذ لم يقتصر في الكتابة على زمن أو مكان معين، فهو يحمل هم الحضارة الإسلامية ككل ويأمل في عودة أوج تطورها، ولا يتم ذلك إلا بوضع تصور واضح يصاغ وفقها، هذا التصور يستند إلى

⁴² ينظر: جاسم سلطان، فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، ط1، مؤسسة أم القرى، 2005، ص124.

⁴³ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 69.

الفكرة الإسلامية، والتي مرجعها القرآن والسنة، كما يستند إلى التجربة والخبرة الإنسانية التي أضفت الشيء الكثير إلى هذا المجال.

انطلق ملك بن نبي من نقده للحضارة الغربية وتأكيد أنه حضارة تمثل ذاتها فقط ولا يمكن أن نتخذها نموذج بل؛ يجب أن ننطلق من قاعدتنا المعرفية ومرجعيتنا الدينية بفعل تفاعل العناصر الثلاثة الإنسان والتراب والزمن حت نحقق نهضتنا الحضارية.

يؤكد مالك بن نبي أن الحضارة لا تتركز على عناصر بعينها وإنما هي كل يجب أن يشارك فيه جميع الأفراد، فهي مفهوم شمولي يجب أن يتجسد في كل جوانب الحياة.

يهدف مالك بن نبي في صياغة رؤيته إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان وتفعيله فهو الذي يعول عليه في الانتقال من أجواء التخلف والتبعية، إلى أجواء التطور والقيادة الحضارية .

يؤكد مالك بن نبي أن عامل الدين أهم عامل لتأليف عناصر الحضارة، ويشير إلى وجوب الاقتداء بالإنسان ما قبل الموحدين فهو النموذج الذي انطلق بحضارته إلى الحضارات الأخرى، بثقة ووعي.

التوصيات:

— دعوة إلى القراءة وإعادة القراءة في فكر مالك بن نبي الموسوعي، قراءة واعية ومتأنية والاستفادة قدر الإمكان منه.

- توجيه طلبة الدراسات العليا للكتابة في الفكر الموسوعي لعلماء النهضة والاهتمام بهم.

لائحة المصادر والمراجع:

مصادر المقال:

1_ بن نبي مالك:

_ مذكرات شاهد القرن، بإشراف ندوة مالك بن نبي، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984.

_ شروط النهضة، تر: كامل مسقاوي وعبد الصبور شهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987.

_ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ت: بسام بركة وأحمد شعبو، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013.

_ فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، ت: عبد الصابور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1971.

_ مشكلة الثقافة، ط4، دار الفكر، الجزائر، 1984، ص98.

مراجع المقال:

أ_ الكتب:

- 1_ بن حمد العويس عبد الله، مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان، 2012.
- 2_ جدعان فهمي، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط1، دارالشرق، الأردن، 1998.
- 3_ الميлад زكي، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1998.
- 4_ عبادة عبد اللطيف، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دارالشهاب، (د ب)، 1984.
- 5_ بوبكر جيلالي، بين الحضارة وفكرنا العربي المعاصر، ط1، دارالأمل، تيزي وزو، 2012.
- 6_ سلطان جاسم، فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، ط1، مؤسسة أم القرى، 2005.
- 7_ تشيكو آمنة، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرلوند توينبي، ط1، المؤسسة الوطنية لدارالكتاب، دارمدين، 1989.

ب_ الرسائل الجامعية:

- 1_ ميهوب العابد، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، بسكرة، 2014.

2_ لحرش موسى، استراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006.